دراسات

في آثار الاقدمين الروحية

لناشد سيفين

الرموز في الديانة المصرية

(تمهيد) يحسن قبل الكلام عن الرموز ان أمهد لذلك بكلمة عن معبودات قدمائنا ومعتقداتهم

تقوم الديانة المصرية على ركنين عظيمين : عبادة القوة ممثلة في مظاهرها في الكون كالشمس والقمر والنيل وعبادة السلف الذين اهتدوا الى الزراعة وكان لهم فضل اخراجهم من ظلمات البداوة الى نور الحضارة. وقد مثلوا لهؤلاء السلف بالأسرة الرمزية المكونة من الثالوث المشهور أوزيريس الأب وإيزيس الأم وحورس الابن الوارث للعرش . ثم انتقلت هذه الصفة الى الملوك من بعدهم فكان الملك هو الوارث لعرش حورس ويلقب بحورس الحي حتى اذا انضم اليهم في العالم الثاني عد كالٰه . ولهذا أنشئت المعابد للملوك في الغرب حيث مقابرهم ليحج اليها أتباع حورس من شعبهم لتقديم فروض العبادة لهم

وقد اهتدوا الى البعث من النظر الى الشمس فهي تولد في الصباح وتبلغ غاية قوتها في الظهر ثم تحدر وتصفر وأخيراً تغرب ثم تبعث في اليوم الثاني . وكانوا يزعمون ان «را» وهو الٰه الشمس اذا بلغ المغرب أخذ هيئة الموتى ليجتاز «الدوات» وهو العالم الثاني ولذلك كان الذين في الشرق عند آون يعبدون الشمس وهي في الاوج باسم «را» والذين في الغرب عند منف يعبدونها وهي في الدوات باسم «بتاح» وكانوا يصورونه لذلك في هيئة مومياء

وقد جعلوا أوزيريس آية على البعث ودليلاً فقالوا انه جاء معلماً للناس وهادياً فعلمهم الزراعة وهداهم الى الدين وأعطاهم الشرائع ثم قتل وبعث ورفع الى « را » في السماء واتحد معه الى العالم الثاني وهو هناك الٰه الموتى

ويلاحظ انه كان لهذه المعبودات مناطق تتركز فيها عبادتها فرا اون وهي هليوبوليس باليونانية ومعناها مدينة الشمس ولآ من طية ولبتاح منف ومكانها الآن ميت رهينة عند البدرشين حيث يوجد تمثال ضخم لرعمسيس ملقى على ظهره وكان في الاصل قائماً عند معبد بتاح. ولأوزيريس

أبيدوس ومكانها الآن البرابة المدفونة عند البلينا . ولتوت خيمنو وهي الاشمونين . ولحورس ادفو . وذلك يدل على أنهُ في الزمن السابق للاسرات لما كانت البلاد منقسمة الى أقاليم مستقلة تحت حكم أمرائها كان الشعب موحّداً اذ كان لكل إقليم معبوده الخاص . فلما صارت البلاد مملكة متحدة تحت حكم مينا واتخذ منف العاصمة وكانت العادة منذ أقدم العصور ان يتولى الأمراء الملك في أقاليمهم كورثة للاله كان طبيعيًّا وقد أصبحت منف حاضرة المملكة المتحدة ان ينتسب ملوكها الى الشمس معبود هذه المنطقة في الشرق باسم «را» وفي الغرب باسم «بتاح» ليكون الملك لهم حقًّا المبًّا بأنهم ابناء الاله وورثتهُ وخلفاؤه في الارض وان يصير اله الشمس ملك الآلهة ورب الأرباب وان تفرض عبادته من ثمَّ على سائر افراد الشعب يعبدونهُ الى جانب معبوداتهم الخاصة في اقاليمهم . وكان هذا بداءة الشرك وتعدد الآلهة

ومع الزمن أصبحت المعبودات جميعها معروفة في سائر أنحاء البلاد فما كان منها متشابهاً في صفاتها عبدوها معاً وخلطوا بين اسمائها في قصصهم الديني حتى ليتعذر ان تفرق بينها . فكثيراً ما تذكر هاتور مثلاً ويراد غيرها من اناث المعبودات مثل ايزيس وسيخت وكذلك «بتاح» لكونه يمثل «را» في العالم الثاني فقد عبد كصورة من صور أوزيريس أو آسار وسمي بتاح سيكر آسار وجعلت في معبده حظيرة للعجل ابيس وهو رمز آسار كما سأبينهُ بعد

ولما نجح احمس رأس الأسرة الثامنة عشرة وكان من طيبة، في تخليص البلاد من حكم الهكسوس واستقل بالبلاد متخذاً طيبة عاصمة للملك أصبح لآمن معبودها المقام الأعلى في البلاد وأدمج فيه «را» وصار يدعى «آمن را»

وفي زمن بطليموس الاول سوتير مؤسس أسرة البطالسة جيء الى مصر من اليونان بتمثال صنع على هيئة العجل وعلى رأسه شارة مصر المكونة من قرص مجنح يكتنفه أفعوان وعقاب وقيل لتزكيته عند المصريين واليونان انه يمثل اتحاد كل من بلوتو اله العالم السفلي عند اليونان وآسار اله الموتى عند المصريين وسمي سيرابيس وشيّد له في الاسكندرية معبد فخم ظل قائماً الى دخول المسيحية . وكانت الغاية من ذلك اضعاف القومية المصرية وخضد شوكة المقاومة فيهم للحكم الاجنبي من طريق افساد عقائدهم باحلال آلهة غريبة مكان آلهتهم التي ألهمتهم اياها طبيعة الاشياء في مصر وضرورات الحياة واصطبغت بصبغة البلاد وصرفهم عن معابدهم التي تمثل فيها عظمة الماضي ومجد ملوكهم الاقدمين

ونظراً لهذا الامتزاج بين المعبودات فاني في دراستي هذه سأحرص على ان أبين هل كان الرمز للمعبود الذي ادرسه في الاصل او كان لآخر لظيره ثم أضيف اليه بعد ادماجه به

﴿الرموز﴾ الرمز أداة يستعان بها لتقريب المعاني المجردة الى الاذهان وتجسيمها لابرازها

لعيان . وقد استعمل قديماً لتعريف الآلهة وتمثيل صفاتهم . وقد اتخذت اكثر الرموز لهذه الغاية من الحيوان لان لاجناسها صفات وغرائز معروفة تتميز بها

ومن اجناس الحيوان التي استعملت رموزاً في الديانة القديمة الأيبس والقرد والعجل والفرة والكبش والجعران . وقد تكلمت في المقال السابق عن الأيبس والقرد . وأضيف الآن اني بعد ارسال المقال قرأت في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري عن طائر اسمه بوتير «انه طائر ابيض يجيء منه طائفة كل سنة في وقت معلوم الى جبل يقال له جبل الطير بصعيد مصر بقرب اخميم» . وهذا الجبل بمديرية المنيا ولا يبعد كثيراً عن الاشمونين . ولعل هذا الطائر هو الايبس كانت يجيء منه طائفة كل سنة عند ارتفاع ماء النيل فتفاءل به الناس واعتبروه بشيراً بالخير وموقتاً يدلهم على وقت الفيضان . ومن ذلك كان تقديسه في هذه المنطقة واتخاذه رمزاً لتوت الاله الذي أرشدهم الى معرفة الاوقات والفصول

وسأتناول في هذا المقال آلهة ورموزاً أخرى وأرجو ان أوفق الى ادراك الصلات المعنوية بين هذه المعبودات ورموزها

(آلهة الشمس) نشأ الناس منذ أدركوا عظمة الكون يتأملون في الكائنات مما في السماء وما في الارض وما بينهما ويتساءلون عن مصدر القوة فيها وانتهوا من ذلك الى معرفة الخالق

ولقد صور صاحب المزامير هذا المعنى أحسن تصوير وأبلغه في المزمور التاسع عشر حيث يقول «السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه .... في كل الارض خرج منطقهم والى أقصى المسكونة كلماتهم . جعل للشمس مسكناً فيها وهي مثل العروس الخارج من حجلته (مخدعه) يبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق . من اقصى السموات خروجها ومدارها الى أقاصيها . ولا شيء يختفي من حرّها»

وكانت الشمس التي اختصها صاحب المزامير بالذكر أعظم وسيلة الى معرفة الاله ، والآية الكبرى على قوته فعبدت منذ أقدم العصور زلفى اليه . وقد بقيت من عبادة الشمس بعض عبارات لا تزال تطلق على الله مجازاً وهي من صفات الشمس أصلاً كالآية «الله نور السموات والأرض» وقولنا السماء كرسيه والارض موطىء قدميه

ومما كان له أثره في خيال الأولين ومعتقداتهم منظر الشمس وهي ترتفع في الأفق من وراء الجبال تتهادى لتأخذ مكانها في كبد السماء ثم تأخذ في الانحدار حتى تختفي كذلك خلف الجبال التي في المغرب . فقد اختلف الرأي في تفسير ذلك مما ترتب عليه اختلاف الرموز وتنوّع العبادات

فمنهم من توهم ان للشمس مسكناً خفيًّا في الجبال وبناء على ذلك بنيت المعابد عليها في بلاد كثيرة تقرّباً لها . ومن هذا القبيل الاكروبوليس بقرب آثينا ومعنى الاسم مدينة الرأس لانها

قائمة على رأس جبل . وكذلك المرتفعات التي جاء في سفر الملوك من أسفار التوراة ان الصوريين والموابيين من سكان فلسطين الأولين كانوا يقيمونها لكموش ومولك آلهة الشمس عندهم. وأصبحت الحيال التي أقيمت عليها تلك المعابد مقدسة ولا يزال بعضها حرمة الى الآن عند بعض الامم

ومنهم من اعتقد ان الشمس تهبط من المغرب الى العالم الثاني عالم الارواح ثم تبعث من المشرق في اليوم الثاني

واختلفوا كذلك في وصفها فمنهم من شبهها في شروقها والأفق من حولها يتلألأ بأشعتها الذهبية بمركبة تحمل الأله من الشرق الى الغرب . وفي مصر شبهت بالثور القوي ينطلق من حظيرته في الجبل الشرقي هائجاً يتقدمه قرناه يكنى بهما عن أشعتها وأول ما يبدو منها . وشبهت أيضاً بالباشق وكني عن أشعتها بجناحيه كما شبهت بالسفينة وقيل لذلك ان في السماء نهراً أعدلها تقطعه في رحلتها اليومية من الشرق الى الغرب

وسأجتزىء من ذلك كله بآلهة الشمس في مصر ورموزها فأجعلها موضوع دراستي في هذا المقال

﴿ المعبود « را » ﴾ « را » هو اسم اله الشمس في أون . ومن هذا الاسم فيما أظن اشتق الفعل « رأى » ولفظة ray بمعنى اشعة . وكان يطلق على الأله اذا كانت الشمس في كبد السماء فاذا ولدت من المشرق في يوم جديد سمي حور ماشيس وهو من أسماء حورس الابن ومن المرجح ان لفظة horizon بمعنى أفق مشتقة من هذا الاسم فاذا انحدرت الى المغرب وآذنت بالغياب في عالم الارواح أطلق على الأله اسم « تمو » أو « آتمو » ولعله في نطقه الصحيح كان أقرب الى لفظة «عتمة» العربية

وبديهي أن هذا الثالوث من الاسماء لم يكن يعني عند الاقدمين ان للشمس آلهة ثلاثة . فالشمس سواء أكانت في كبد السماء أم في المشرق أم في المغرب هي واحدة والهها كذلك واحد. أما هذه الأسماء فهي اكثر ما تكون شبهاً بالاقانيم الثلاثة للاله الواحد في اعتقاد المسيحيين

ويظهر ذلك جليًّا في صلواتهم . وحسبي برهاناً على قولي ان أنقل بضع فقرات من صلاة نشرها مريت باشا بأصلها الهيراطيقي وترجمت منها الى اللغات الاوربية . وفيما يلي ترجمتها من الانكليزية :

« ايها الكائن الواحد خالق الخلق كله . الواحد الاحد . موجد الكائنات » ومنها « ايها الأله آمن وهو (را) وآتمو وحورماشيس موجد الكائنات كلها . ان جميع الناس يسجدون لك قائلين انا نمجدك لانك في وسطنا ونسجد لك لانك خلقتنا » ومنها «انه يسمع صلاة المستضعفين ويستجيب دعاء الداعي اذا دعا . وهو ينقذ الودعاء من ايدي قساة القلوب . ويقضي بالحق

بين الاقوياء والضعفاء» ومنها «ان عينه على الناس وهم نيام وهو يكفل لادنى خليقته احتياجاتها»

﴿ رموزه ﴾ تقدم القول ان الاوائل في فطرتهم شبهوا الشمس في شروقها بالثور وبالباشق وبالسفينة. وقد احتفظ قدماؤنا والمصريون محافظون بطبيعتهم بتلك الصور جميعها كذخيرة مقدسة

أما الثور فقد اتخذوه باسم منفس رمزاً حيًّا لرا ووسيلة للزلفى اليه . وقد جاء في حجر رشيد المشهور ان بطليوس الخامس أغدق عليه وعلى الحيوانات الاخرى المقدسة الخير وأجزل لها العطاء تقرُّباً للآلهة

وأما الباشق فهو رمز حورس الابن وهو حورماخيس الشمس المشرقة وكان يصنع تمثاله من الذهب الخالص لمطابقة لونه لأشعة الشمس عند الشروق . وقد جعل رأس الباشق يتوجه قرص الشمس في موضع الرأس من تمثال « را » وهو على هيئة رجل يقبض باحدى يديه على علامة الحياة وبالاخرى على رمز القوة

وأما السفينة فهي رمز آمن اله الشمس في طيبة وسيأتي الكلام عنها بعد

ولما كانت سلسلة الجبال المحاذية للنيل على امتداده تبعد اكثر اجزائها عن الوادي المعمور ويتعذر لذلك اقامة المعابد للشمس عليها او في سفوحها كما فعلت الامم الاخرى فقد اصطنع قدماؤنا المسلة التي أصبحت عنواناً على مصر في هذا العصر لتكون رمزاً للافق وجعلوها مرتفعة لتستقبل أول ما يبزغ من أشعة الشمس وجعلت رؤوسها هرمية الشكل وطليت بصفائح مصقولة من الذهب والنحاس لتعكس عنها ولها لون الاشعة في الشرق وتوهجها ، واتخذوا لها بيتاً في داخل المعبد اطلقوا عليه اسم «هات بن بن »اي بيت المسلات وجعلوه قبلتهم . أما ما كان منها في غير هذا البيت فأريد به الزلفى الى الاله. وقد تنافس الملوك خلال آلاف السنين في اقامتها وحرصوا على ان يسجلوا عليها ما قدموا من صالح الاعمال لمجد أبيهم الاله وعظمة الوطن. لكن لم يبق من ذلك الأعداد يسير

***

وقد بلغت هليوبوليس شأواً عظيماً واصبحت من اعظم المدن في زمانها . وكان معبدها من أكبر المعابد في مصر وأغناها واكثرها حاشية حتى قيل انه في زمن الاسرة العشرين بلغت الحاشية عدة آلاف . الا انها بسبب موقعها في الشرق كانت في طريق الغزاة الذين جاؤا من آسيا الى منف العاصمة . فداسوها واحداً اثر آخر وأعملوا فيها يد الخراب حتى لم يبق من المدينة العظيمة ومعبدها حجر على حجر الا المسلة اليتيمة القائمة في وسط الحقول في قرية المطرية. وهي ثانية اثنتين أقامهما اوزرتسن الاول من ملوك الاسرة الثانية عشرة حوالي عام ٢٤٣٣ ق . م . أما اختها فقد ظلت في مكانها الى القرن السابع ثم اندرست آثارها

[للبحث صلة]